٢-الجذور العميقة

كان "دياب النمر"عمدة قرية "كفر الهوى"رجلاً في منتصف العقد الخمسين من عمره، متوسط الطول، يميل إلى السمنة، ولذا يبدو قصيرًا بعدما غطس جزءُ من طوله في تخنه، ورغم ذكائه كان قليل الثقة بنفسه، وبغيره، ويغدر بكل عزيز عليه، إذا تطلبت مصالحه ذلك، ورغم ثرائه يشعر بالدونية وقلة الأصل.

ومنذ أن تحسنت أحوال "دياب النمر" تنكر لأهله، وإخوته الثلاثة، وقاطع كل أقربائه، بيد أن أخاه الكبير "أبو المجد" حاول كثيرًا أن يقربه من العائلة دون جدوى، وعندما يئس من تغير حاله فضل الصمت، لأنه عرف أن زوجته "فاتن" كانت ترفض هذا التقارب، ولا تريد لأحد غيرها أن يستأثر به.

يُحكى عن"دياب النمر"في أرجاء القرية الكثير، والكثير، فقد تدحرجت حوله العشرات من الشائعات، تارة يقال إنه قد عثر على كنز دفين في جدار بمنزله القديم، ومنهم من يقول إنه وجد عنق جمل ذهبية أسفل عقب الباب، وبعضهم يؤكد أنه استخرج بلاصًا من الجنيهات الذهبية قد دفنها الجد الكبير في قلب الحائط السميك بوسط الدار، ومنهم من يقسم بأغلظ الأيمان أنه عثر على تمثال من الذهب الخالص في عتبة غرفة الخبيز، ولم تكن تلك التأويلات قاصرة على العمدة وحده، فهي تستهدف كل فقيرنَجَا بِنَفْسِهِ مِنْ الفقر، ولم يعلم أحدُ سببًا لثَّرائه.

يرجع سبب تلك الأقاويل المتعددة وغيرها إلى أن "دياب النمر"سليل أسرة شديدة الفقر، كان أبوه يعمل أجيرًا بالمعاش لدى "حسونة الفقي" عمدة القرية الراحل منذ عدة عقود، وبعد انتهاء خدمته العسكرية بمدينة الإسكندرية، استقر بها بمنطقة العجمي قرابة عقد من الزمان، وعاد بعدها للقرية بزوجته "فاتن"،ليبني بيتًا فاخرًا، ويشتري الأراضي الزراعية، حتى أصبح من الأعيان، وبعد إفلاس الأثرياء وصعود المعدمين تبدل الحال، وعين مشفوعًا

بالثروة عمدة للقرية، ورغم عوار أصله، جبر المال نقيصته.

كانت"حميدة"تسمع الكثيرعن سوءات العمدة الجديد،وتخشى على ولدها منه، فالغموض الذي حوله يُشْعرها بالخوف. وخاصة أنه سعى سعيًا حثيثًا نحو هذه الشراكة، وقبل بكل الشروط،، وفُسر الأمر وقتها أنه يريد مصادقة الشباب المتعلم ليرفع من شأن نفسه، جرّاء إحساسه بالدونية، وحتى الآن لا أحد يعلم لب الحقيقة، أو سببًا لتلك الشراكة سوى"دياب النمر" نفسه.

مازالت القرية تلفظه في الباطن وتبجله في الظاهر، فصورة أبيه لا تفارق خيال أهل البلدة، فقد كان "النمر" الأب اسمًا على غير مُسمى، كان هيكلاً هزيلاً نحيلاً كالدجاجة، ويمشي كالبطة العرجاء، أما حماقته فقد فاقت كل الحدود، كان من أهل الخرافات والهذيان، ويمتلك حمارًا هو كل ثروته، يكلمه كأنه يخاطب البشر، كان يفتح فمه ويصب الشاي فيها صبًا،وعلمه شرب الدخان، بوضع سيجارة ملفوفة في أنفه، فيدخل الدخان صدر الحمار مع كل شهيق، وعلّمه شرب المعسل، بوضع غابة "الجوزة" في أنفه فيستنشق دخانها، وأحياناً يعطس الحمار فيطرد الهواء في البرطمان الزجاجي فيصعد الماء من قلبها إلى قمتها، ليطفئ النار فوق الحجر المحشو بالمعسل والفحم المشتعل.

ومن نوادر "النمر"الأب أنه اشترى في شهر رمضان دجاجة للفطور، وقد تأخر بعد المغرب بساعتين، ولم تنتظره زوجته"مبروكة"حتى يعود، وتناولت الفطور هي وأولادها على نصف الدجاجة وتركت له النصف الآخر، وعندما عاد هاج وماج، يرىد الدجاجة كاملة وتجمع الجيران لتهدأته دون جدوى، كان يرىد من زوجته بأن تخرج نصف الدجاجة من بطنها وبطن الصغار، ولم يهدأ إلّا بعد أن قام بعض الجيران بضربه بالنعال فوق رأسه، فخرج إلى الفضاء ينتظر ليلة القدر، ليدعوعلى زوجته، وعلى من ضربه.

جلس ينتظر الليلة الموعودة فغلبه النعاس، حتى أفاق على نار مشتعلة على مدد الشوف، خفتت مرة واحدة، فظنها علامة من علامات ليلة القدر فنسي ما خرج من أجله، ودعى لولده "دياب" بأن يصبح العمدة، ثم عاد يهرول

في منتصف الليل ينادي على زوجته "مبروكة" ويكرر مايلي :

- يا مبروكة يا زوجتي لقد رأيت ليلة القدر ودعوت لـ"دياب" بأن يصبح عمدة القرية.

تداخل النداء في جوف الليل مع طبلة المسحراتي، وسمعه معظم أهل القرية أثناء تناولهم للسحور، فامتزج الضحك بالطعام، وكاد بعضهم أن يبتلع الطعام في رئته من شدة الضحك، فلم يكن "النمر" يملك من القوة إلّا صوته الجهور، عاد للبيت ونسي ما حدث كعادته، وبشر زوجته بهذه الدعاء، ثم أدلف نحو حلة الطعام يلتهم نصف الدجاجة الذي رفض تناوله منذ عدة ساعات.

في الصباح كانت قصته على كل لسان أهل القرية، النسوة تقصها وهن يغسلن القمح في الترعة استعداداً لطحنه، فتروحن بسيرته عن كبتهن، والرجال في الحقول يتبادلون سيرته في حديث الصباح، فترتسم البسمات على جباه أنهكها الشقاء.

الكل يعلم أن النار التي رأها " النمر" لم تكن سوى نـارًا أشعلها "خفير الوسية"في كومة قش بالقرب من "العزبة البحرية" المملوكة للعمدة "حسونة الفقي"، وذلك بهدف الخلاص من بقايا قش الأرز حتى لا تحوي بعضًا من الحشرات الضارة.

طار الخبر إلى"حسونة الفقي" عمدة القرية فضحك ثم استشاط غضبًا، فميراث القرويون وجل مجدهم في أن تبقى العمودية في أحضان العائلات الكبيرة، وخروجها إلى عائلة أخرى عارٌ لا يساويه عار آخر. معنى هذه الدعوة أن يزول ملك أبنائه وأحفاده، أوغرت تلك الدعوة صدر العمدة، وعجز أن يسيطر على سماحته التي طالما اشتهر بها. فقد منح "النمر" أجرًا على عمل لا يقوى على القيام بمهامه.فكان كلما طرده ناظرالعزبة أعاده رفقًا بأسرته.

لم تكن المشكلة في عدم قدرة "النمر"على العمل فحسب، بل في عرقلة سيره، فعمال "الوسية"أينما وجدوه يتركون العزيق في الأرض، أو حرثها ويلتفون حوله، يستمعون نوادره فيضحكون، كانت القصص التي يحكيها كأنها تأتي من

جعبة "جحا"معبقة بسخرية السنين، وشر البلية ما يضحك.

كان شوق الكادحين للبسمة كشوق الأرض القاحلة إلى قطرات الماء كي تحيا، وبمجرد ظهوره يهرع عمال "الوسية"نحوه في مجموعات، تارة يكون كالحاوي، وتارة كالأراجوز، كان يستقطب الفلاحين بالقرية، لعل ما يقوله يبلل عطش الأرواح الظمآنة للسعادة، كانوا يعلمون أنه فارغ، بيد أن انتزاع الضحكات الشحيحة فيها بعض السلوى. وجه الشبه بينهم أن الخلل في عقل"النمر" يقابل الضنك في أرزاق الأنفار، فالحمقى وبعض الفقراء جلهم في الهم سواء.

كانت المفارقات التي تنجم عن الحديث مع المخبول هي مصدر الفكاهة، فاللامعقول في عالم الأحياء يفجر الكوميديا البيضاء، والسوداء في آن واحد، كانت نوادره تصرف الأنفار بما يقول عن أداء الواجبات، وهذا ما يغضب ناظر العزبة "معروف"، ويعرضه للمحاسبة أو الرفد إذا قل حجم العمل عن معدله الطبيعي، في صورة هزلية يرتفع صراخ "ناظر العزبة"وهو يحسو التراب على رأسه ورأس "النمر"،فيمتزج الغضب بضحكات العمال وهم يهرولون إلى الحقول خوفًا من العقاب. فربما من ظفر بالتسرية عن نفسه في صباح هذا اليوم سوف يخصم منه الرغيف في المساء، عقابًا على ترك العمل، ومجالسة "النمر".

تطوع الخفراء بإنزال أشد العقوبة على"النمر"جرّاء مكنون دعوته التي تبشر بزوال ملك عمدتهم المحبوب، فقيدوه، وجلدوه بالسياط جلدًا مبرحًا، حتى بلغ صوته الجهوري عنان السماء، فسمعه الطير والدواب والبشر.

لم ينقذه من أيديهم سوى"شريف" ابن العمدة "حسونة الفقي" فأطلقوه ليطوف بالقرية بالمساء يحكي آلام الجلد، وعدد الضربات التي تلقاها بالسياط، فكانت حكاويه مجالاً جديدًا للفكاهة.

فجأة وبعد عدة عقود،طفت تلك الحكايات القديمة فوق السطح من جديد، وكأنهاحدثت بالأمس. فمن خصائص القرية أن سجل فلاحيها بحلوه ومره، محفور بالتواتر بين عقول أبنائها، ويُعير الأبناء والأحفاد بسيئه، ويحمدو بحسناته.

وجد الشباب العاطلون في سرد هذه الأحـداث مجالا جديدًا للتسرية، فنشروهاعلى صفحات الفيس بوك رمزًا وتصريحًا، وأيضًا تعبيرًا عن رفضهم للعمدة الغامض الذي لايعرف أحدًا لأصله شرفًا، ولا لثروته مصدرًا.

فجر كل ذلك غضبًا عظيمًا لدى "دياب النمر" وعزم على مواجهة الساخرين منه ومن أبيه بأية وسيلة، فقد كان شريرًا يجيد التدبير والتخطيط، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بقرارته، أوفيما يفكر به، بيد أن البعض شاهده يحمل بندقيته الآلية على ظهره، ويركب سيارته وحده، دون السائق، وكل الخوف أن يرمي بجحافل غضبه فوق رأس شريكه "غريب" فالمزرعة التي زُودت بدوائر موسيقية للجاموس هي من فجر هذه السخرية القاتلة بالقرية، أو ينتقم من "سيف جاد" مفجر السخرية على صفحات التواصل الاجتماعي.